يقول الله سبحانه وتعالى ((**وَالسَّمَآءِ وَالطَّـارِقِ . وَمَـآ أَدْرَاكَ مَـا الطَّارِقُ . النَّجْمُ الثَّاقِبُ**)) وهنا كما تـرون فيـه قسـم وقـد يشـكل على بعض الناس كيف يقسم الله سبحانه وتعـالى بالمخلوقـات مـع أن القسم بالمخلوقات شرك لقول النبي صـلى اللـه عليـه وسـلّم: (**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**)، وقال عليه الصلاة والسلام: (**من كان حالفاً فليحلف بـالله أو ليصـمت**). فلا يجـوز الحلـف بغيـر اللـه لا بالأنبيـاء، ولا بالملائكـة، ولا بالكعبـة، ولا بـالوطن، ولا بـأي شيء من المخلوقات؟ والجواب على هذا الإشـكال أن نقـول: إن اللـه سبحانه وتعالى له أن يقسم بما شاء من خلقه، وإقسامه بما يقسم بـه من خلقه يدل على عظمة الله عز وجل، لأن عِظم المخلوق يدل علـى عِظم الخالق، وقد أقسـم اللـه تعـالى بأشـياء كـثيرة مـن خلقـه، ومـن أحسن ما رأيته تكلم على هذا الموضوع ابن القيم رحمه الله في كتـابه " **التبيان في أقسام القرآن** " وهو كتاب جيـد ينفـع طـالب العلـم كثيراً، فهنا يقسم الله تعالى بالسماء، والسماء هو كـل مـا علاك، فكـل ما علاك فهو سماء، حتى السحاب الذي ينزل منه المطر يسمى سماءً، كما قـال اللـه تعـالى: ((**أنزل مـن السـماء مـاء فسـالت أوديـة بقدرها**)). وإذا كان يطلـق علـى كـل مـا علاك فـإنه يشـمل مـا بيـن السـماء والأرض ويشـمل السـماوات كلهـا لأنهـا كلهـا قـد علتـك وهـي فوقك. وأما قوله: ((**والطارق**)) فهو قسم ثـان، أي أن اللـه أقسـم بالطارق فما هو الطارق؟ ليس الطارق هو الـذي يطـرق أهلـه ليلاً بـل فسره الله عز وجـل بقـوله: ((**النجم الثـاقب**)) هـذا هـو الطـارق، والنجم هنا يحتمـل أن يكـون المـراد بـه جميـع النجـوم فتكـون " **ال** " للجنس، ويحتمل أنه النجم الثـاقب، أي: النجـم اللامـع، قـوي اللمعـان، لأنه يثقب الظلام بنوره، وأيًّا كان فإن هذه النجـوم مـن آيـات اللـه عـز وجل الدالة على كمال قدرته، في سيرها وانتظامها، واختلاف أشـكالها واختلاف منافعها أيضاً، قال الله تبارك وتعالى: ((**وعلامات وبـالنجم هـم يهتـدون**)). وقـال تعـالى: ((**ولقـد زينـا السـماء الـدنيا بمصابيح وجعلناهـا رجومـاً للشـياطين**)). فهـي زينـة للسـماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتـدى بهـا. ثـم بيـن اللـه المقسـم عليـه بقوله: ((**إن كل نفـس لمـا عليهـا حـافظ**)) ((**إن**)) هنـا نافيـة يعني ما كل نفـس، و((**لما**)) بمعنـى " **إلا** " يعنـي مـا كـل نفـس إلا عليها حافظ من اللـه، وبيـن اللـه سـبحانه وتعـالى مهمـة هـذا الحـافظ

بقـوله: ((**وإن عليكم لحـافظين. كرامـاً كـاتبين. يعلمـون مـا تفعلون**)). هؤلاء الحفظة يحفظون على الإنسـان عملـه، مـا لـه ومـا عليه، ويجده يوم القيامة كتاباً منشوراً يقول له: ((**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً**)) . هؤلاء الحفظة يكتبون ما يقـوم بـه الإنسان من قول، وما يقوم بـه مـن فعـل، سـواء كـان ظـاهراً كـأقوال اللسان، وأعمال الجوارح، أو باطنـاً حـتى مـا فـي القلـب ممـا يعتقـده الإنسان فـإنه يكتـب عليـه لقـوله تعـالى: ((**ولقد خلقنـا الإنسـان ونعلم مـا توسـوس بـه نفسـه ونحـن أقـرب إليـه مـن حبـل الوريد. إذ يتلقى المتلقيان عن اليمن وعـن الشـمال قعيـد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيـد**)). هـذا الحـافظ يحفـظ عمل بنـي آدم، وهنـاك حفظـة آخـرون ذكرهـم اللـه فـي قـوله: ((**له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمـر اللـه**)). ((**إن كل نفس لما عليها حافظ**)) ((**فلينظر الإنسـان ممـا خلق**)) " **اللام** " هنـا للأمـر، والمـراد بـالنظر هنـا نظـر الاعتبـار وهـو النظر بالبصيرة، يعني ليفكر الإنسان مما خلق؟ هـل خلـق مـن حديـد؟ هل خلق من فولاذ؟ هل خلق مـن شـيء قـاسٍ قـوي؟ والجـواب علـى هذه التساؤلات: أنـه ((**خلق مـن مـاء دافـق**)) وهـو مـاء الرجـل، ووصفه الله تعالى في آيات أخرى بأنه ماء مهين ضعيف السيلان ليـس كالماء العادي المنطلق، ووصفه الله تعالى في آية أخرى أنه نطفـة أي قليل من الماء، هذا الذي خلق منه الإنسان، والعجب أن يخلق الإنسان من هذا الماء المهين، ثم يكون قلبه أقسى من الحجارة ـ والعياذ بـالله ـ إلا من ألان اللـه قلبـه لـدين اللـه، ثـم بيـن أن هـذا المـاء الـدافق ((**يخرج من بين الصلب والترائب**)) من بين صـلب الرجـل وترائبـه أعلى صدره، وهذا يدل على عمق مخـرج هـذا المـاء، وأنـه يخـرج مـن مكان مكين في الجسد، والصواب أن هذا الوصـف لمـاء الرجـل وقـال بعض العلماء: ((**يخرج من بين الصلب**)) أي صلب الرجـل وترائـب المرأة. ولكنّ هذا خلاف ظاهر اللفـظ، والصـواب أن الـذي يخـرج مـن بين الصلب والترائب هو ماء الرجل، لأن الله تعـالى وصـفه بـذلك. ثـم قال تعالى: ((**إنه على رجعه لقادر يوم تبلى السرائر فمـا لـه من قوة ولا ناصر**)) ((**إنه**)) أي الله عز وجل. ((**على رجعـه**)) أي على رجع الإنسان ((**لقادر**)) وذلـك يـوم القيامـة لقـوله ((**يـوم تبلى السرائر**)) فالذي قدر على أن يخلـق الإنسـان مـن هـذا المـاء

الـدافق المهيـن، قـادر علـى أن يعيـده يـوم القيامـة، وهـذا مـن بـاب الاستدلال بالمحسوس على المنظور المترقب، وهو قياس عقلي، فـإن الإنسان بعقله يقول إذا كان الله قادراً على أن يخلق الإنسان مـن هـذا الماء المهين ويحييه قادر على أن يعيده مرة ثانية ((**وهو الذي يبـدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه**)). ولهذا يسـتدل اللـه عـز وجـل بالمبدأ على المعاد لأنه قياس جلي واضح، ينتقل العقـل مـن هـذا إلـى هذا بسرعة وبدون كلفة، وقوله: ((**يوم تبلى السـرائر**)) أي تختـبر السرائر، وهي القلوب، فإن الحساب يوم القيامة على ما في القلـوب، والحساب في الدنيا على ما في الجوارح، ولهذا عامل النبي صلى اللـه عليه وعلى آله وسلم المنافقين معاملة المسلمين حيـث كـان يُسـتأذن في قتلهم فيقول: (**لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصـحابه**)، فكان لا يقتلهم وهو يعلم أن فلانًا منافق، وفلانًا منافق، لكن العمل في الـدنيا علـى الظـاهر ويـوم القيامـة علـى البـاطن ((**يـوم تبلـى السرائر**)) أي تختبر وهذا كقـوله: ((**أفلا يعلم إذا بعـثر مـا فـي القبور. وحصل ما في الصدور**)). ولهـذا يجـب علينـا يـا أخـواني يجب علينا العناية بعمل القلب أكثر من العناية بعمـل الجـوارح، عمـل الجوارح علامة ظاهرة، لكن عمل القلب هو الذي عليـه المـدار، ولهـذا أخبر النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج يخاطب الصحابة يقول: (**يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم** ــ يعنـي أنهم يجتهدون في الأعمال الظاهرة ولكن قلوبهم خالية والعياذ بـالله ــ **لا يتجاوز الإسلام حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية**) ، فعلينا أيها الأخوة أن نعتنـي بقلوبنـا وإصـلاحها وأعمالهـا، وعقائـدها، واتجاهاتهـا،قـال الحسـن البصـري رحمـه اللـه: " **والله ما سبقهم أبو بكر بصلاة ولا صوم، وإنما سـبقهم بمـا وقر في قلبه من الإيمـان** " والإيمـان إذا وقـر فـي القلـب حمـل الإنسان على العمل، لكن العمـل الظـاهر قـد لا يحمـل الإنسـان علـى إصلاح قلبه، فعلينا أيها الأخوة أن نعتني بقلوبنا وإصلاحها وتخليصها مـن شوائب الشرك والبدع، والحقد والبغضاء، وكراهـة مـا أنـزل اللـه علـى رسوله وكراهة الصحابة رضي الله عنهم، وغيـر ذلـك ممـا يجـب تنزيـه القلب عنه. ثم قال تعالى: ((**فما له من قـوة ولا ناصـر**)) يعنـي يوم القيامة ما للإنسـان ((**من قـوة**)) ذاتيـة ((**ولا ناصـر**)) وهـي القوة الخارجية، هـو بنفسـه لا يسـتطيع أن يـدافع عـن نفسـه، ولا أحـد

يستطيع أن يدافع عنه، قال الله تعالى: ((**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**)). في الدنيا يتساءلون، يسأل بعضهم بعضاً، ويحتمي بعضهم ببعض، لكن يوم القيامة لا أنساب يعني لا قرابة، لا تنفع القرابة ولا يتساءلون. فنسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وقلوبكم وأعمالنا و أعمالكم وأن يهب لنا منه رحمة إنه هو الوهاب، قال تعالى ((**وَالسَّمَآءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ**)) . هذا هو القسم الثاني للسماء، والقسم الأول ما كان في أول السورة، فهناك قال: ((والسماء والطارق. وما أدراك ما الطارق. النجم الثاقب)) وهنا قال: ((**والسماء ذات الرجع. والأرض ذات الصدع. إنه لقول فصل**)) والمناسبة بين القسمين ـ والله أعلم ـ أن الأول فيه إشارة إلى الطارق الذي هو النجم، والنجم كما نعلم تُرمى به الشياطين الذين يسترقون السمع، وفي رمي الشياطين بذلك حفظ لكتاب الله عز وجل، أما هنا فأقسم بالسماء ذات الرجع أن هذا القرآن قول فصل، فأقسم على أن القرآن قول فصل، فصار القسم الأول مناسبته أن فيه الإشارة إلى ما يحفظ به هذا القرآن حال إنزاله، وفي القسم الثاني الإشارة إلى أن القرآن حياة، يعني يقال: ((**والسماء ذات الرجع**)) الرجع هو المطر، يسمى رجعاً لأنه يرجع ويتكرر، ومعلوم أن المطر به حياة الأرض. ((**والأرض ذات الصدع)**) الصدع هو الانشقاق يعني التشقق بخروج النبات منه، فأقسم بالمطر الذي هو سبب خروج النبات، وبالتشقق الذي يخرج منه النبات، وكله إشارة إلى حياة الأرض بعد موتها، والقرآن به حياة القلوب بعد موتها، كما قال الله تبارك وتعالى: ((وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا)). فسمى الله القرآن روحاً لأنه تحيا به القلوب. يقول عز وجل: ((**والسماء ذات الرجع**)) أي ذات المطر. ((**والأرض ذات الصدع**)) أي ذات الانشقاق لخروج النبات منها. ((**إنه**)) أي القرآن ((**لقول فصل**)) وصفه الله بأنه قول ، قول من قول الله عز وجل، فهو الذي تكلّم به وألقاه إلى جبريل عليه ، ثم نزل به جبريل على قلب النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وقد أضاف الله القرآن قولاً إلى جبريل، وإلى محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال تعالى في الأول: ((**إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثمَّ أمين**)). وقال في الثاني إضافته إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم: ((**إنه لقول رسول**

كريم. وما هـو بقـول شـاعر قليلاً مـا تؤمنـون)). ففـي الأول أضاف القول إلى جبريل ، لأنه بلغه عن الله إلى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وفي الثاني أضافه إلى محمد صلى اللـه عليـه وسـلّم لأنه بلغه إلى الناس، وإلا فإن الذي قاله ابتداءً هو الله سبحانه وتعـالى. ((**إنه لقول فصل**)) فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المتقيـن والظالمين، بل إنه فصل أي قاطع لكل مـن نـاوأه وعـاداه، ولهـذا نجـد المسلمين لمـا كـانوا يجاهـدون الكفـار بـالقرآن نجـدهم غلبـوا الكفـار، وقطعوا دابرهم، وقضي بينهم وبينهم ، فلما أعرضوا عن القرآن هُزموا وأذلوا بقدر بُعدهم عـن القـرآن، وكلمـا أبعـد الإنسـان عـن كتـاب اللـه ابتعدت عنه العزة، وابتعد عنه النصـر حـتى يرجـع إلـى كتـاب اللـه عـز وجل. قال **((وما هو بالهزل**)) أي ما هو باللعب والعبث واللغو، بل هو حق، كلماته كلها حق، أخباره صدق، وأحكامه عدل، وتلاوته أجر، لـو تلاه الإنسان كل أوانه لم يمل منه، وإذا تلاه بتدبر وتفكر فتح الله عليـه من المعاني ما لم يكن عنده من قبل، وهذا شيء مشاهد، اقرأ القرآن وتدبره، كلما قرأته وتدبرته حصل لك من معانيه ما لم يكن يحصل لـك من قبل، كل هذا لأنه فصل وليس بالهزل، لكـن الكلام اللغـو مـن كلام الناس كلما كررته مججته وكرهته ومللته أمـا كتـاب اللـه فلا. ثـم قـال تعالى: ((**إنهم يكيدون كيداً**)) ((**إنهم**)) يعنـي الكفـار المكـذبين للرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم ((**يكيدون كيداً**)) أي كيـداً عظيماً، يكيدون للرسول عليه الصـلاة والسـلام، ويكيـدون لمـن اتبعـه، وانظر ماذا كانوا يفعلون بالمؤمنين أيام كـانوا فـي مكـة مـن التعـذيب والتوبيخ والتشريد، هاجر المسلمون مرتيـن إلـى الحبشـة، ثـم هـاجروا إلى المدينة كل ذلك فراراً بدينهم من هـؤلاء المجرميـن، الـذين آذوهـم بكل كيد، وأعظم ما فعلوا بـالنبي عليـه الصـلاة والسـلام حيـن الهجـرة حيـث اجتمـع رؤسـاؤهم وأشـرافهم يتشـاورون مـاذا يفعلـون بمحمـد؟ فكلما ذكروا رأياً نقضوه، قالوا هذا لا يصلح، حتى أشار إليهم فيما ذكره التاريخ الشيطان الذي جاء بصورة رجل وقال لهم: إني أرى أن تختاروا عشرة شبان من قبائل متفرقة، وتعطـوا كـل واحـد منهـم سـيفاً حـتى يقتلوا محمداً قتلة رجل واحد، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمـه فـي القبائـل، فلم تستطع بنو هاشم أن تقتص من القبائل كلها فيرضـخون إلـى أخـذ الدية. وهذا هو الذي يريدون، فأجمعوا على هذا الرأي واستحسنوا هـذا الرأي، وفعلاً جلس الشبان العشرة ينتظـرون خـروج النـبي صـلى اللـه

عليه وعلى آله وسلم ليقتلوه، ولكن النبي صلى اللـه عليـه وعلـى آلـه وسلم خرج من الباب وهـم جلـوس ولـم يشـاهدوه، وذكـر التاريـخ أنـه جعل يذر التراب على رؤوسهم إذلالاً لهـم، ويقـرأ قـول اللـه تعـالى: ((**وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهـم سـدًّا فأغشـيناهم فهم لا يبصرون**)). ولا تتعجبـوا كيـف خـرج النـبي صـلى اللـه عليـه وعلى آله وسلم من بينهم ولم يشاهدوه، لا تعجبـوا مـن هـذا، فهـا هـم قريش حين اختبأ النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم فـي الغـار لمـا خرج من مكة يريد المدينة اختبأ في الغار ثلاثة أيام ليخف عنه الطلـب؛ لأن قريش صارت تطلبه، وجعلت لمن جاء به مئة بعير، ولمـن جـاء بـه مع أبي بكر مئتي بعير، وهذه جائزة كبيرة، فوقفوا على الغار الذي فيه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبو بكر، وكلنا يعلم أن الغار المفتـوح إذا كان فيه أحد فسوف يُرى، ولكنهم لم يـروا النـبي صـلى اللـه عليـه وعلى آله وسلم، ولا أبا بكر رضي الله عنه، فقـال: يـا رسـول اللـه لـو نظر أحدهم إلى قدمه لأبصرنا. فقال: (**لا تحزن إن الله معنا، ومـا ظنك باثنين الله ثالثهما**). فاطمأن أبـو بكـر. هـؤلاء القـوم الـذين وقفوا على الغار ليس عندهم قصور في السمع، ولا قصور في البصـر، ولا قصور في الذكاء، ولكن أعمى الله أبصارهم عـن النـبي صـلى اللـه عليه وعلـى آلـه وسـلم وصـاحبه، فلا تعجبـوا أن خـرج مـن بيـن هـؤلاء الشبان العشرة كما قال أهل التاريخ، وجعل يذر التراب على رؤوسـهم ويقـول: ((**وجعلنا مـن بيـن أيـديهم سـدًّا ومـن خلفهـم سـدًّا فأغشيناهم فهم لا يبصـرون**)). ثـم يقـول اللـه عـز وجـل فـي سورة الطارق((**إنهم يكيدون كيداً**)) ((**وأكيد كيداً**)) وقال اللـه تعالى في سورة الأنفال: ((**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك**)) يعني يحبسوك ((**أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكـر اللـه والله خير الماكرين**)) . ثم قال عـز وجـل: ((**فمهل الكـافرين أمهلهم رويداً**)) مهل وأمهل معناهمـا واحـد يعنـي انتظـر بمهلـة ولا تنتظر بمهلة طويلة، ((**أمهلهم رويداً**)) أي قليلاً، ورويداً تصـغير روْد أو إرواد، والمراد به الشـيء القليـل. وفـي هـذه الآيـة تهديـد لقريـش، وتسلية للرسول صلى الله عليه وعلـى آلـه وسـلم، ووعـد لـه بالنصـر. وحصل الأمر كما أخبر الله عز وجل، خرج النبي عليه الصـلاة والسـلام مهـاجراً منهـم، وحصـل بينـه وبينهـم حـروب، وفـي السـنة الثانيـة مـن الهجرة قُتل من صناديد قريش وكبرائهم وزعمائهم نحو أربعة وعشرين

رجلاً، منهم قائدهم أبو جهل، وبعد ثماني سنوات بل أقل من ثماني سنوات دخل النبي صلى الله عليه وسلّم مكة فاتحاً منصوراً ظافراً، حتى إنه قال كما جاء في التاريخ وهو ممسك بعضادتي باب الكعبة وقريش تحته قال لهم: (**ما ترون أني فاعل بكم**)؟ لأن أمرهم أصبح بيده عليه الصلاة والسلام، (**ما ترون أني فاعل بكم**)؟ قالوا: أخٌ كريم، وابن أخ كريم. فقال: (إني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: ((**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**)). **اذهبوا فأنتم الطلقاء**)، وإنما منّ عليهم هذه المنة عليه الصلاة والسلام لأنهم أسلموا، وقد قال الله تعالى: ((**قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**)). هذ آخر هذه السورة في كتاب الله عز وجل وإني في نهايتها أحثكم على تدبر القرآن وتفهم معناه، بعض العلماء الموثوقين أم في كتب التفسير الموثوقة مثل تفسير ابن كثير، تفسير الشيخ عبد الرحمن بن سعدي وما أشبههما من التفاسير التي تعرفون أصحابها من الموثوقين في عقيدتهم وفي آراءهم نسأل الله أن يجعلنا جميعاً ممن يتلون كتاب الله حق تلاوته، وأن ينفعنا به، وأن يجعله شفيعاً لنا يوم القيامة، إنه على كل شيء قدير، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين .